الباب الأول

ابن حزم: عصره وحياته وتراثه

الفصل الأول: عصر ابن حزم.

الفصل الثانى: حياة ابن حزم.

الفصل الثالث: إنتاج ابن حزم العلمى.

الفصل الأول
عصر ابن حزم

أولا: الحالة السياسية:

نعتقد أنه لا يمكن فهم إبداع ابن حزم فى كتابه، ولا أسلوبه وما اتصف به من حدة، ولا مرمى فكره واتجاه أبحاثه، ولا مثله العليا وطباعه ومزاجه إلا إذا عرفنا تلك الأيام التى عاشها ابن حزم، والأحوال التى أظلته، وكانت أقسى مما خط أى مؤرخ وأشد هَوْلًا من تصوير أى خيال[1].. والذى يهمنا فى بحثنا هذا أن نلقى بعض الضوء على أهم الأحداث والظروف السياسية التى عاصرت ابن حزم، وتركت آثارها على كتابه «الفصل».

ولد ابن حزم فى عهد «هشام المؤيد[2]» الذى تولى بعد «الحكم المستنصر[3]» وهو غلام فى العاشرة من عمره، وكان ضعيف العقل، محدود الذكاء، خائر العزيمة[4]، حجبه فى القصر واستبد بالأمر دونه المنصور بن أبى عامر، الذى كان من وزرائه «أحمد بن سعيد» والد ابن حزم.. وقد استطاع أن يقضى على الخصوم ويسيطر على الحكم حتى دانت له الأندلس كلها وأمنت به، ولم يضطرب عليه شىء منها أيام حياته لعظيم هيبته وسياسته. ولقد كان المنصور - برغم أخطائه العديدة ومنها ما

(١) راجع الدكتور الطاهر مكى: دراسات عن ابن حزم ١٠٥.

(٢) هو هشام بن الحكم المستنصر، أمه أم ولد تسمى «صُبح» بويع بالخلافة سنة ٣٦٦ هـ، ولّما يجاوز الثانية عشرة من عمره، وكان فى طول دولته متغلبا عليه لا ينفذ له أمر (راجع جذوة المقتبس ١٧، والبغية ٢١).

(٣) هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر، ولى الخلافة وله سبع وأربعون سنة، كان حسن السيرة، جامعا للعلوم محبا لها، مكرما لأهلها، وجمع من الكتب فى أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، مات فى صفر سنة ست وستين وثلاثمائة (بغية الملتمس للضبى ١٨ - ٢١).

(٤) راجع: المغرب١/ ١٩٤ - ١٩٥.

سار فيه على خطى «الناصر[1]» من اتخاذ البربر والصقالية، والمأجورين والمرتزقة، وإقصاء العرب - ناجحا فى سياسته؛ إذ أعطى الأندلس ما أعطاه لها «عبد الرحمن الناصر» قبله من الهدوء والوحدة، والثراء والهيبة، مما تجاوز الأمم المجاورة وبلغ الخافقين[2].

وقد قام المنصور سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة بآخر حملة حربية له، وكانت غاية أمانيه أن يموت مجاهدا، ويحس فى أعماقه بأن رغبته سوف تتحقق يوما ما، ولذا كان يحمل معه أكفانه حيثما سار إلى الغزو، وهى أكفان صنعت من غزل بناته، واشتريت من حُرّ ماله، ويحمل معه التراب الذى تجمع على ملابسه فى غزواته، ليدفن معه، فلا يدخل النار من اغبرت قدماه جهادا فى سبيل الله، وفى مدينة سالم توفى، وفيها دفن عملا بوصيته أن يدفن حيث يموت[3]. وقد تقلد الإمارة بعده ابنه المظفر أبو مروان عبد الملك بن محمد، فجرى فى الغزو والسياسة والنيابة عن «هشام المؤيد» وحجابته مجرى أبيه، وكانت أيامه أعيادا دامت سبع سنين إلى أن مات[4]. وتولى بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور الملقب «بشنجول» وكان نحسا على نفسه وعلى أهل الأندلس[5]؛ إذ خلا من كل الخصائص التى كانت لأبيه أو لأخيه من قبل، ومن ثم نراه يقدم على ما لم يفعله واحد منهما: حدثته نفسه بأن يصبح ولى عهد للخليفة «هشام الثانى» وتم له ذلك بمرسوم صدر فى شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ، وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة، يتكلفون البشر، والدعاء بما أكرمه الله به، وقلوبهم تفيض إنكارا وسَخَطا، وقد ذهب عبد الرحمن فى غروره واختياله إلى أبعد مدى عندما عين ابنه الطفل عبد العزيز فى خطة الحجابة،

(١) هو عبد الرحمن الناصر: ولى الأمر وله اثنتان وعشرون سنة، تسمى عبد الرحمن بأمير المؤمنين، وتلقب بالناصر لدين الله، مات فى صدر رمضان سنة خمسين وثلاثمائة (جذوة المقتبس ١٢).

(٢) راجع: دراسات عن ابن حزم ١٠٦.

(٣) راجع الحميدى: جذوة المقتبس ٧٩ والأستاذ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام ٢/ ٥٦٦.

(٤) الحميدى: الجذوة ٧٩.

(٥) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ١/ ٢١٣.

وأسبغ عليه لقب «سيف الدولة» وهو لقب عمه المظفر، واعتقد عبد الرحمن أن الأمور قد دانت كلها له، فأطلق العنان لأهوائه، وانكبَّ على لهوه وشرابه يحيط به نفرٌ من بطانة السوء يصورون له الأحوال في أبدع الصور وأحبها إلى نفسه[1]. وقد انتهز أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، ويدعى محمد بن هشام ابن عبد الجبار - وكان المظفر قد قتل والده - فرصة أن عبد الرحمن شنجول في غزوة ضد «ألفونسو الخامس» ملك ليون، فقاد ثورة استولى بها على قصر الخلافة، وطلب من الخليفة «هشام المؤيد» خلع نفسه، فبادر هشام بالقبول خوفا على حياته، ووليها محمد بن هشام، واتخذ لنفسه لقب المهدى بالله..

وفي الوقت نفسه أمر المهدى بنقل الأشياء الثمينة من مدينة «الزاهرة» مقر العامريّين، إلى قرطبة، فدخل العوام والدَّهماء المدينة وحدث من النهب والسلب ما لا يقدر ولا يوصف، ويقال: إن نصيب الخليفة المهدى من هذه الغنائم التى حصلها من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة ألف دينار من النقود، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف، ولم يكتف المهدى بذلك كله، بل أضرم النيران فى القصور بعد ما أفرغت من محتوياتها، وأضحت المدينة الضاحكة أطلالا دارسة، وخرائب موحشة، وكان المهدى يتعجل إزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه[2].

ولقد كان المهدى سيئ السيرة، مغامرا متهورا أحمق، ألب الطوائف المختلفة بما كان يرتكبه من رذائل وآثام، ولقد اشتدت ثورة الأتقياء حين علموا أنه يقيم حفلات ساهرة، يبلغ الموسيقيون فيها مائة، ما بين عازف على العود أو الناى، وأطلقوا عليه اسم «السكير» واتهموه بأنه خرب البيوت ونهب الممتلكات، مثل ما كان يفعل سابقوه، وهكذا بدأ يدفع بالرأى العام كله إلى صفوف المعارضة[3].

(١) دولة الإسلام ٢/ ٦٢٧ - ٦٢٨.
(٢) راجع: دولة الإسلام ٢/ ٦٣٥.
(٣) دراسات عن ابن حزم ١٠٩.

وقد تخوف المهدى أن يكون اسم هشام الثانى، الخليفة المعزول، راية تلتقى عندها كل الجماعات التى أساء إليها، ففكر واهتدى إلى حل وسط: ألا يقتل أسيره، وأن يكتفى بإعلان موته، وقد توفى فى ذلك الوقت رجل نصرانى أو يهودى، قيل إنه كان يشبه «هشاما» شبها قويًا، فأعلن محمد بن هشام، وفاة الخليفة، ودعا المهدى بالفقهاء وعِلْيةِ القوم فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقا وصلى على الميت صلاة الجنازة، ودفن فى مقابر المسلمين فى جلال ملكى يليق بخليفة سابق، وكانت تلك الحادثة فى السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ[١]، وقد شهد ابن حزم ووالده فصول هذه «المسرحية» وأوردها فى كتابه «الفصل» وفى غيره من الكتب فى تندر واستنكار[٢].

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له - بعد أن أعلن وفاة الخليفة - أطلق العنان لشهواته وأهوائه وبالغ فى الاستهتار والمجون، مما جعل البربر يتجمعون حول هشام بن سليمان ويبايعونه بالخلافة، واتخذ لنفسه لقب «الرشيد» وقد استطاع أن يجمع حوله سريعا سبعة آلاف مقاتل من المناوئين للمهدى، فسار بهم جميعا إلى قصره، فلما علم الخليفة بالثورة أرسل يسأل: ماذا تريدون؟ ورد هشام الرشيد: أنت وضعت والدى فى السجن، وأجهل مصيره، فأطلق الخليفة فى الحال سراح سليمان، وظنّ أن الجماهير تقنع وتنصرف ولكن دون جدوى، وبعد قلاقل واضطرابات اضطر القرطبيون أن يحملوا السلاح، دفاعا عن بيوتهم لا عن الخليفة، وجاء الجنود لمساعدتهم، ودار القتال بينهما يومين متتالين، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين، وأسر هشام ووالده، ونفر من الزعماء، وأمر المهدى بقتلهم جميعا[٣]..

وأراد البربر أن يثأروا لهزيمتهم فوقع اختيارهم على سليمان بن الحكم بن سليمان حفيد عبد الرحمن الناصر، وبايعوه خليفة واتخذ لقب المستعين «وأخذ

(١) دولة الإسلام ٢/ ٦٤٤.

(٢) الفصل ١/ ٥٩ وراجع - أيضا - نقط العروس: مبحث «أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها».

(٣) انظر: دولة الإسلام ٢/ ٦٤٥، دراسات عن ابن حزم ١١٠.

الصراع بين المهدى وبين البربر بقيادة «المستعين» صورة يندى لها الجبين، ولعل الأحداث التى وقعت بين المهدى والمستعين - وكلاهما يدعى الخلافة - كان لها أثر بالغ فى حياة الإمام ابن حزم وكتابه «الفصل» ونحن نذكر شيئا من هذه الفتن والمآسى التى عاصر المؤلف أحداثها حتى ندرك العوامل التى جعلته يهتم بدراسة النصرانية واليهودية..

ويجدر بنا أن نشير إلى أمر كان هو الداء الدوى الذى كان معه البلاء، ذلك أن المسلمين لما فتحوا بلاد الأندلس تجمع النصارى فى ركن حصين فى شمالها فكانوا شوكة فى جنب الدولة، أو بالأحرى كانوا موضع الداء الكامن، وكان هؤلاء النصارى يكمنون للمسلمين بالمرصاد، فإن رأوا فرصة انتهزوها[1]. وقد ساعد النصارى فى تحقيق أغراضهم ما كان بين حكام المسلمين فى الأندلس من صراع على السلطة واستعانة بعضهم على بعض بأعدائهم، وإن التاريخ لينبئنا أن الصراع لما اشتد بين المهدى والمستعين أرسل المستعين أعوانه من البربر إلى كبير النصارى فى قشتاله يطلبون منه أن يمدهم بالجند والمؤن الوفيرة - وقد كان المهدى بواسطة أعوانه استطاع أن يقطع عن البربر التموين - وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون والقلاع، وعندما وصل السفراء إلى قصر الحكم فى قشتالة، وجدوا سفارة من المهدى سبقتهم إليه، تسوق بغالا وخيولا وهدايا أخرى، ووعده بالتنازل له عن عدد من القلاع والحصون إذا أسرع النصارى إلى مساعدة خليفة قرطبة!! وسبحان مغير الأحوال، لقد أصبح خلفاء قرطبة يتلقون الأوامر من أمراء النصارى فى الشمال، فيما يتصل بأخص شئونهم وما يتوقف عليه مستقبل بلادهم[2]..!!

وقد رأى النصارى أن مصلحتهم تقتضى أن يقفوا مع البربر والمستعين الذى سار صوب قرطبة ومعه جموع البربر وعساكر النصارى بقيادة «سانشو غرسيه» واشتبك الفريقان فى القتال يوم السبت الثالث عشر من ربيع الأول عند سفح جبل قنطيس أو قنتش، وكانت نتيجة المعركة هزيمة مروعة للقرطبيين، ووضع البربر السيف

(١) راجع: ابن حزم لأبى زهرة ٩٥.

(٢) راجع: دراسات عن ابن حزم ١١٠.

عليهـم، وقتـل منهم عدد كثير يقدره البعض بعشـرة آلاف، بينهـم عدد كبير من العلماء والأئمة، وقتل النصارى وحدهم نيفا وثلاثة آلاف رجل[1].. وبات الناس على سـطوح دورهم في وجل وخوف.. ولاذ المهدى بقصره، وبعد قليل حاصره البربر، وحاول أن ينقذ نفسـه بحيلة سخيفة، يدفع بها دعوة سليمان فأظهر الخليفة هشاما المؤيد - الذى أعلن وفاته قبل ذلك - وأجلسه فى مكان بارز فى شرفة القصر، وبعث القاضـى ابن ذكوان إلى البربر، يخبرهم أن الخليفة هشـاما مازال على قيد الحياة، وأنه الخليفة الشـرعى، وليس المهدى سـوى نائبه وصاحبـه، وضحك البربر من الرسول ومن الرسالة، وردوا عليه سبحان الله يا قاضى! يموت هشام بالأمس وتصلى عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش، وترجع إليه الخلافة[2]!!

وخلال المفاوضات كان القرطبيون يرتعشون لمجرد رؤية سليمان المستعين ومعه البربر يهددون أسوار مدينتهم، فخرج الشعب لاستقباله بحماسة[3]. وبينما سليمان يأخذ طريقه إلى داخـل العاصمة، ارتكب البربر والنصارى كل الجرائم التى تخطر على البال، وأفلت المهدى واختفى فى قرطبة، وطلب زعيم النصارى من سـليمان أن يوفى له بوعده فى التنازل عن القلاع والحصون، واعتذر سـليمان بأنها ليسـت فى يـده الآن، ووعده للمرة الثانية بأن يتركها لـه حين تصبح فى ملكه، وحينئذ غادر النصارى قرطبة بعد أن جمعوا ثروات طائلة، مما نهبوا من أملاك القرطبيين.. وبعد أحداث جرت، ومعارك وقعت بين المهدى والمسـتعين اسـتطاع المهدى أن يدخل قرطبة مرة أخرى - بعد أن كان غادرها إلى طليطلة - وجدد البيعة لنفسه بالخلافة للمرة الثانية[4]..

وأراد المهـدى أن يقضى على البربر قبل أن يعـودوا لمقارعته فجمع الأموال من أهل قرطبة وحشد كل ما استطاع لقتالهم، وكان جيش المهدى يتكون من نحو ثلاثين

(١) البيان المغرب ٣ / ٩٠.
(٢) دراسات عن ابن حزم ١١٠.
(٣) الذخيرة لابن بسام المجلد الأول القسم الأول ٣٠ - ٣١ ودولة الإسلام ٢/ ٦٤٧.
(٤) راجع البيان المغرب ٣/٩٤.

ألف من المسلمين وتسعة آلاف من النصارى، والتقى الجمعان فى معركة طاحنة، دارت فيها الهزيمة على المهدى وحلفائه، وقتل من النصارى نحو ثلاثة آلاف، وغرق منهم عدد جم، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم، وكانت هذه الموقعة فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ[١].

وعاد المهزومون إلى قرطبة، وبلغ الغيظ بالنصارى مبلغه، فأرادوا أن يثأروا لهزيمتهم من عامة الناس، فقتلوا كل أولئك الذين يشبهون البربر على نحو ما، وكل من أراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا بربرى، فيقتل دون أن يسأل، وأخذ جندى من النصارى ابنة رجل من البادية جميلة، وعرف أبوها، فحمل شكواه إلى «واضح» - والى مدينة سالم الذى تحالف مع المهدى - وقال إنها ليست بربرية، فرد عليه الوالى، دعك من هذا، ما إلى ردها إليك من سبيل، وعلى ذلك عاهدناهم، فمضى الرجل باكيا إلى الجندى، وحمل إليه ٤٠٠ دينار ذهبى يفتدى بها ابنته، فأخذها منه ثم قتله[٢]...!!

* * *

تلك صفحة من صفحات الأندلس الحزين، وصورة للفتن التى عاشها واكتوى بنارها إمامنا على بن حزم، ويهمنا فى بحثنا هذا، أن نوضح الأمور الآتية:

أولا: أن احتكاك المسلمين بالنصارى فى الأندلس فى تلك الأيام جعلته يدرس الديانات المختلفة دراسة فاحص، ويتعرف أوجه التحريف فى كتب أهل الكتاب بهذا العمق الذى ورد فى كتاب «الفصل» وتحدثنا عنه فى تلك الدراسة.. كما استطاع أن يجادل النصارى عن بينة، ويعرف مصادرهم ومواردهم، والذى يعتقدون اتصاله بدعوة المسيح الأولى (عليه السلام)[٣].

(١) دولة الإسلام ٢/ ٦٤٩.
(٢) دراسات عن ابن حزم ١١٤.
(٣) راجع أبا زهرة: ابن حزم ١٠٠.

ثانيـا: هذه الفتن التى حدثت فى عصره، جعلته يزهد فى السياسـة، ويشـتغل بالدرس والتأليف، فكان كتاب «الفصل» وغيره من الكتب التى أثرت الفكر الإسلامى، وأصبحت مرجعًا لطلاب العلم على مر العصور.

ثالثـا: كان من الطبيعى ألا ينظـر ابن حزم نظرة إكبار إلى الأمـراء الذين كانوا يسـتعينون بالنصارى أو يمدون أيديهم بالولاء يسـتجدونه، أو بالإتاوة يدفعونها، فقد كان لا محالة ينظر إليهم بازدراء، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، وآثروا الذلة على العزة، وآثروا الدنية على الدين، ولذا كان بينه وبينهم عداوة كان من مظاهرها إحـراق كتبه، وكان من مظاهرها أن جفوه حتـى آوى إلى ضيعته التى ورثها، فأقام فيها يدرس ويصنف، يكتب الرسـائل ويكاتب العلماء ويراسلهم، حتى أدى مهمته وانتقل إلى جوار ربه[1]..

ثانيا: الحالة الثقافية:

عـاش ابن حـزم فى عصر نهضت فيه الثقافة، وعلت رايـة العلم، ووجد العلماء الأجـلاء الذين جمعوا بيـن الثقافات المتعددة، وألفوا الكتـب القيمة، أمثال الإمام أبى عمر بن عبد البر[2]، وأبى الوليد الباجى[3]، وغيرهما ممن اشـتهر بسـعة الأفق

(١) المرجع السابق.

(٢) هـو يوسـف بن عبد الله بن عبد البر: فقيه، حافظ، مكثر، عالـم بالقراءات وبالخلاف فى الفقه، وبعلوم الحديث والرجال. لم يخرج من الأندلس لكنه سـمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها، ومن الغرباء القادمين عليها، كان يميل فى الفقه إلى قول الشـافعى، وله تآليف نافعة من أشـهرها: «التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسـانيد» وكتاب «الاستيعاب» وكتاب «جامع بيان العلم وفضله» توفى بشاطبة فى سنة ستين وأربعمائة، وكان صديقا لابن حزم رحمهما الله (الضبى: بغية الملتمس ٤٨٩ – ٤٩١ وراجع أيضا المغرب ٢/ ٧٠٤ وابن بشكوال: الصلة ٢/ ٦٧٧).

(٣) هو سـليمان بن خلف الباجى المالكى الحافـظ: فقيه، محدث، إمام، متقدم، عالم، متكلم، رحل إلى المشـرق وكان مقامه به ثلاثة عشـر عاما سمع خلالها من جلة الفقهاء، ونال حظا وافرا من العلم، وله تواليـف تدل على معرفته وسـعة علمه، وكان له مع ابن حزم مناظـرات يطول ذكرها، ولد فى ذى القعدة سـنة ثلاث وأربعمائة وتوفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة بالمرية (ابن بشكوال: الصلة ١/ ٢٠١ والبغية ٣٠٢ والمغرب ١/ ٤٠٤).

وكثرة المعارف، كما أن حركة الترجمة التى نشطت فى عهد المأمون آتت أكلها فى الأندلس.. وحين نقرأ كتاب ابن حزم فى المنطق[1] نجد أثر ذلك واضحا، كما أن مناقشاته للفرق المتعددة فى كتابه «الفصل» تنبئ عن علم بما ترجم فى عصره، وما قبله من كتب اليونان[2].

ولعل الفضل فى تلك الروح العلمية التى أظلت بلاد الأندلس ترجع إلى عبد الرحمن الناصر الذى تولى نحو خمسين سنة[3]، وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها، ولقد تحدثت كتب التاريخ عن «الحكم الثانى[4]» واهتمامه بالعلم والمعرفة، وكان هو نفسه عالما موسوعيا يقضى ساعات طويلة فى مكتبته يقرأ، وقلمه فى يده يعلق على ما يقرأ، وقلما تجد كتابا فى خزائنه، من أى فن كان، إلا وله فيه نظر، يكتب فيه بخطه إما فى أوله وإمَّا فى آخره، أو فى تضاعيفه، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بمختلف الفنون، وكان موثوقا به، مأمونا عليه حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ينقلونه من خطه[5].

قال الحميدى فى ترجمة ابن عبد ربه: «توفى أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة... ومدح الأمير محمدا، والمنذر، وعبد الله، وعبد الرحمن الناصر، هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا»[6].

وكانت مكتبة الحكم الثانى تضم (٤٠٠,٠٠٠) مجلد وتشغل مكانا فسيحا فى قصر الخلافة، ويحكى ابن حزم فى كتابه «جمهرة أنساب العرب» نقلا عن تليد

---

(١) التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية (راجع مبحث تراث ابن حزم).

(٢) أبو زهرة: ابن حزم ١٠١.

(٣) تبتدئ من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٥٠ هـ (انظر: جذوة المقتبس ١٣).

(٤) راجع ترجمته ص ١٤.

(٥) الحلة السيراء: ٤٨.

(٦) الجذوة: ٩٤.

الفتى - وكان على خزانة العلوم - أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فَهْرسةً، وفى كل فهرسة، خمسون ورقة، ليس فيه إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير[1].. وقد اتخذ الحكم وراقين له بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ووجه رجالا إلى الآفاق بحثا عن الكتب، وكان يدفع فيها أثمانا غالية، فحملت إليه من كل جهة حتى غصت بها بيوته وضاقت عنها خزائنه، وجمع منها ما لا يجمعه أحد قبله[2].

وقد أغدق «الحكم» العطايا على مختلف العلماء والأدباء والفقهاء كى يؤلفوا من أجل خزائنه، أو يضيفوا كتبهم إلى ما فيها، كما كان يُغرى علماء المشرق بالقدوم عليه، وكان من هؤلاء أبو على القالى اللغوى الذى قدم على الحكم فأكرمه وأحسن مثواه، وكان ينشطه بواسع العطاء، ويشرح صدره بالإفراط فى الإكرام[3]. ومما يلحق بهذا النشاط العلمى كثرة الأطباء وعلماء التنجيم الذين تجمعوا حول الناصر والمستنصر، وكان الأسقف القرطبى «ابن زيد» مختصا بالمستنصر وله ألف كتاب «تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان»[4] أما الطبيب «حسداى بن إسحاق» اليهودى فقد استغل حظونه عند «الحكم» وتوصل من ذلك إلى استجلاب ما شاء الله من تآليف اليهود بالمشرق ففتح بذلك يهود الأندلس باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك، وكانوا من قبل يعتمدون فى فقه دينهم، وسنى تاريخهم، ومواقيت أعيادهم على يهود بغداد[5]..

ولا ريب أن هذه الكتب التى حوتها خزانة «الحكم» كانت تحت نظر ابن حزم ينهل من علمها، ويستمتع بقرائتها، قراءة العالم الواعى الذى يفهم ما يقرأ، ويستوعب ما يدرس، حتى آتت القراءة أكلها، فكان هذا التراث الضخم الذى خلفه ابن حزم، ومنه كتاب «الفصل» الذى تظهر فيه معالم تلك القراءة واضحة جلية،

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ١٠٠.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسى: ٦٦.
(٣) الجذوة ١٥٦ نقلا عن تاريخ الأدب الأندلسى ٦٤.
(٤) نفح الطيب ٢/ ٧٧٨.
(٥) راجع طبقات الأطباء ٤٩٨.

وممّـا يؤكد اطلاع ابن حزم على هذه المكتبة أنها بقيت محفوظة إلى أيام الفتن التى قامت فى قرطبة من سنة ٣٩٩هـ إلى سنة ٤٠٣هـ؛ فقد قال ابن خلدون، ولم تزل هذه الكتـب بقصر قُرطبة إلى أن بيع أكثرها فى حصار البربر، وأمر بإخراجها الحاجب «واضـح» من موالى المنصـور بن أبى عامر، ونهب ما بقى منهـا عند دخول البربر واقتحامهم إياها[١].

ولقد حـوى عصر ابن حزم مَكْتَبَات أخرى خاصـة بأصحابها غير مكتبة «الحكم الثانى» ولنأخذ - مثلا - مكتبة قاضى الجماعة بقرطبة، أبى المطرف «عبد الرحمن ابن فطيس» فقد جمع الكتب الكثيرة فى أنواع العلم المختلفة وكان له سـتة وراقين ينسـخون، ورتب لهم على ذلك راتبا معلوما، ومتى علم بكتاب حسـن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه، وبالغ فى ثمنه، فإن قدر على ابتياعه، وإلا انتسـخه منه وردَّه إليه[٢].

ولم يقف الأمر عند الخاصة من الناس، فكان البسـطاء - أيضا - يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم فى بيوتهم بقدر ما تسـمح به إمكاناتهم، ولدينا معلومات عن صاحب «كُتَّاب» يدعى ابن حزم (غير صاحبنا مؤلف كتاب الفصل) يعلم الأطفال فيه، وكان ما يوفره يشترى به كتبا، وفى ساعات الفراغ يقوم على نسخها، وكانت مكتبة منظمة، فيها كتب قيمة، وأحيانا نادرة، أتى بها فى رحلة كانت له إلى المشـرق، وتتميز بالضبط والدقة، وللإفادة منها يتردد عليها العلماء والطلاب[٣].

ومن كل ما سـبق يتبين لنا أن الحالة العلمية بالأندلس كانت مزدهرة منتعشـة، وأن ابـن حـزم وجد فيها التربة الخصبـة، والمكان الرحب الواسـع الثراء بالعلوم والآداب، فنهـل مـن كل علم، وتذوق كل فـن، فجاء بثقافة واسـعة، وحمل علوما نافعة[٤].

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٢٤٢ ط الرفاعى.

(٢) دراسات عن ابن حزم: ٦٣.

(٣) السابق ٦٤.

(٤) سهير أبو وافية: ابن حزم ٤١.

ثالثا: الحالة الاجتماعية:

يطيب لنا ان نشير بكلمة إلى المجتمع الأندلسى فى عصر ابن حزم لأن كتاب «الفصل» كان انعكاسا لهذا المجتمع وما يضم بين جنباته من أجناس مختلفة، وسلالات متباينة..

لقد كان هناك العرب الذين جاءوا مع موسى بن نصير، أو فى أفواج أيام عبد الرحمن الناصر، وقد أورد لنا ابن حزم معلومات مستفيضة عن منازلهم فى كتابه «جمهرة أنساب العرب»[1] واتخذ عدد منهم مكانه إلى جانب الإمارة أو الخلافة، ولم تكن أعدادهم كبيرة فى مدينة قرطبة، ويمكن القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى، ويتولون الوظائف الهامة، وعكف بعضهم على التجارة، وقلة تُدير من العاصمة مزارعها الواسعة فى الريف، وحافظوا على أصولهم التى انحدروا منها، وحرصوا على أن يتميزوا بألقابهم العربية[2].

وكان هناك البربر الذين سارعوا إلى دخول الأندلس لقربها من أوطانهم، وقد اتخذ البربر من جنوب الأندلس وغربها مثوى لهم لشبهها ببلادهم، وإذا كان الكثيرون منهم عملوا فى المهن المتواضعة، فإنَّ التاريخ ينبئنا عن بعض الشخصيات التى استطاعت بمواهبها أن تنال حظا وافرا من العلم ومكانا مرموقا فى الحياة السياسية والأدبيةن من هؤلاء: أبناء يحيى بن يحيى الليثى[3] كبير فقهاء المالكية، ومنذر بن سعيد[4] شيخ الخطباء، وابن دراج[5] القسطلى شاعر المنصور بن أبى عامر..

---

(١) راجع - مثلا - صفحات ٣٩٠، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٤، ٤٢١ من الكتاب المذكور.

(٢) دراسات عن ابن حزم: ١٣ - ١٤، وانظر - أيضا - لطفى عبد البديع: الإسلام فى أسبانيا ١٨ - ٢١.

(٣) يحيى بن يحيى الليثى، أشهر فقهاء الأندلس، أصله من البربر، رحل إلى المشرق فسمع مالك بن أنس وكان مالك يسميه "عاقل الأندلس" رفض أن يتولى أى منصب رسمى، ولكن نفوذه كان أكبر من أى موظف، توفى فى رجب لثمان بقين منه من سنة أربع وثلاثين ومائتين (ابن سعبد: المغرب ١ / ١٦٣).

(٤) منذر بن سعيد: من أصل بربرى، من فحص البلوط، ولى قضاء الجماعة بقرطبة فى حياة الحكم المستنصر بالله، وكان عالما فقيها، وأديبا بليغا وظل فى منصبه هذا ستة عشر عاما، ثم توفى ليلة الخميس لليلتين بقيتا لذى القعدة آخر سنة خمس وخمسين وثلاث مائة. (راجع: الخشنى: قضاة قرطبة ١٢٠ والضبى: بُغية الملتمس ٤٦٥).

(٥) أحمد بن محمد بن دراج القسطلى، ولد سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، كان معدودا فى جملة العلماء، والمتقدمين من الشعراء، وشعره كثير مجموع يدل على علمه: قال ابن حزم: «لو قلت إنه لم

أما الكثرة الغالبة من السكان فى الأندلس فهم من سكانها قبل الفتح الإسلامى ويسميهم المؤرخون «المسالمة» كما يطلقون على أبنائهم «المولدون» وكان منهم الحرفيون، وصغار التجار، ورجال الأعمال، وبعضهم كان يعمل فى المزارع حول قرطبة[1].

ثم نجد السود والصقالبة الذين يتخذون لخدمة القصور، وقد ازداد عددهم زيادة كبيرة فى عهد الناصر لدين الله.. وأكثر منهم المنصور بن أبى عامر، لأنهم اشتهروا بالقوة والاحتمال.. وقد نبغت طائفة منهم فى العلم والأدب فكان منهم الشعراء والكتاب، وقد خصهم «حبيب الصقلبى» بكتاب ذكر فيه مآثرهم سماه «كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة»[2].

وكان هناك «المستعربون» – كما تسميهم المصادر اللاتينية – أو «نصارى الذمة» أو «العجم» – كما تطلق عليهم المصادر الغربية – الذين يتبعون مذهب «الملكانية» – كما يقول ابن حزم فى الفَصْل، وقد كلفت الدولة الإسلامية حرية العقيدة فى أداء شعائرهم، والحفاظ على كنائسهم وأديرتهم.. فعاشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم لا يتعرض لهم أحد بسوء، ولا يكرهون على اعتناق عقيدة، ولا تحرق لهم كنيسة، ويمكن أن نلمس شيئا من تلك السماحة التى عاش فى ظلالها نصارى الأندلس من خلال الكتاب الذى كتبه «عبد العزيز بن موسى بن نصير» «لتدمير بن عبدوش» أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه – ﷺ – ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون عن دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذى اشترطنا عليه[3].

يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد" توفى قريبا من العشرين والآربعمائة، وقيل توفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة (راجع ابن بشكوال ١ / ٤٠).

(١) دراسات عن ابن حزم ١٥.

(٢) لطفى عبد البديع: الإسلام فى أسبانيا ٣٧.

(٣) ابن عبد المنعم الحميرى: صفة جزيرة الأندلس ٦٢.

وقد استقل نصارى الأندلس بشئونهم الدينية، وكان لهم رئيس ينتخبونه من بينهم يدعى قومس COMES وقاضى يعرف بقاضى النصارى أو العجم، يفصل فيما يكون بينهم من منازعات بمقتضى قانون يختص بهم، أما ما يكون بين مسلم وذمى من منازعات فالفيصل فيها الشريعة الإسلامية، كما كان لهم كنائس فى داخل المدينة، وعدد آخر خارجها، تضم كل واحدة منها ديرا.. وبرغم أن أصابع الاتهام كانت تشير إلى بعض الأديرة التى تحولت إلى حانات للشراب وأمكنة لممارسة الحب، فلا يمكن القول بأنهم جميعا، وبأن الأديرة كلها كانت كذلك، ومهما يكن من أمر، فإن مثل هذا الاتهام لم يكن يسبب أية متاعب لطائفة النصارى[1].

أما اليهود فقد سكنوا الأندلس قبل مجىء المسلمين، ولكنهم وجدوا فى رحاب الإسلام منجاة لهم مما أصابهم من قهر واضطهاد، وأملاً فى عودة حقوقهم المغصوبة، وحريتهم المسلوبة.. ولذلك كان اليهود عونا للمسلمين على حركة الفتح – منذ اللحظة الأولى – ومن القواد من كان يكل إليهم حراسة المدن[2]. ولما استقر الأمر للمسلمين بالأندلس منحوهم سماحة وحرية كانوا لا يحلمون بهما فى تلك البلاد التى سامتهم سوء العذاب، فمنحوهم حرية التنقل فى أنحاء البلاد والتجارة بها، وألحقوهم بالوظائف العامة، وأعادوا لهم أراضيهم وأموالهم التى صادرتها الحكومات السابقة، وأعادوا لهم أبناءهم الذين كانت الكنيسة قد أخذتهم لتربيهم تربية مسيحية، وسمحوا لهم ببناء معابدهم، وإقامة شعائرهم الدينية، ومنحوهم الاستقلال القضائى فى القضايا الشرعية[3].

وقد دفعت سماحة المسلمين بالأندلس اليهود فى أنحاء من أوربا، وأفريقيا، وآسيا إلى الهجرة إلى تلك الديار[4].

---

(١) دراسات: ١٨.

(٢) انظر: الإسلام فى أسبانيا ٣٣.

(٣) اليهود فى الأندلس ٢١.

(٤) انظر: المرجع السابق ٢١ ودراسات عن ابن حزم.

والظاهـر أنهـم كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة من سـكان بعـض المدن، حتى قال الإدريسـى عن «أليسـانة» : «إن سـكانها كانوا من اليهود فقـط ولا يداخلهم فيها مسلم[1]».

أما فى قرطبة فكانوا يكونون جالية كبيرة، تقطن حيًّا خاصا بها يقع بين شـارع القنطرة وقصر الخلافة، ويحمل اسـمهم، وكان أحد أبواب المدينة يطلق عليه اسـم بـاب اليهود[2]. وقد كانـوا يعملون فى الصناعات والحرف التـى تُدِرُّ أرباحا طائلة واحتكـروا بعض أنواع التجـارة، كتجارة العبيد، والحريـر، والتوابل، كما عملوا مترجميـن وأطباء، وفـى التنجيم والفلـك، وبعض الوظائف التـى تتصل «بخزانة المال»[3]، وقد عظم شأن اليهود فى عاصمة الخلافة فى عهد «عبد الرحمن الناصر»، الذى كان له طبيب يهودى يدعى: إسـحاق بن عزرا بن شـفروط، واشـتهر باسـم: «حسداى بن شفروط» ، وقد استطاع أن يكسب ثقة الخليفة وحبَّه، واشتهر بترجمته لكتاب «ديوسـقوريديس» فى الحشـائش والنباتات الطيبـة[4]، وقد أعجب الخليفة بالترجمة فعين «حسـداى» طبيبا فى القصر، وانتفـع بدرايته باللغة اللاتينية عند استقباله لرسل أمراء ممالك أوربا الناطقة باللاتينية، وكان يستشيره فى أمور الدولة الداخلية والخارجية وخاصة فى شـئون التجارة وأصبح «ابن شفروط» على مر الأيام المهيمن على تجارة الأندلس وشئونها الخارجية [5].

ويرجع الفضل إلى «حسـداى» فى إقامة مدرسة الدراسـات اليهودية فى قرطبة التى توسـع فيها اليهود حتى أصبحت دارا للإفتاء فى الشـريعة اليهودية، وبديلا لمدرستى العراق (صورا وبمباديا) اللتين كانتا تتصدران لهذا الأمر [6].

(١) الإدريسى: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ٢٠٥ نقلا عن اليهود فى الأندلس٢١.
(٢) دراسات عن ابن حزم ١٨.
(٣) انظر: اليهود فى الأندلس ٢١.
(٤) انظر: الإسلام فى أسبانيا ٣٣.
(٥) اليهود فى الأندلس ٢٣.
(٦) انظر: دراسات عن ابن حزم ٢١.

وفى عصر الطوائف قام اليهود بنصيب وافر فى إشعال نار الفرقة بين أمراء الطوائف واستطاعوا بدهائهم أن يشغلوا كثيرا من المناصب المهمة فى الدولة، نذكر منهم: إسحاق بن يعقوب الذى كان صاحب الشرطة فى غرناطة، و«ابن نغريلة» الذى وصل إلى درجة الوزارة رسميا، وكان مسئولا أمام «باديس» عن شئون الإمارة الداخلية، وبعد سنوات ولاه إمرة الجيش فقاد «ابن نغريلة» الحملات الحربية ضد أعداء «باديس» بيد أن هذا اليهودى نسى إكرام المسلمين له ولأهل دينه، فتطاول على الإسلام وشرائعه، واستهزأ بالمسلمين، وجاهر بأنه قادر على أن ينظم القرآن فى أشعار وموشحات ليتغنى به فى المجالس والأسواق، ومن شعره بالعربية عن القرآن:

نقشتُ فى الخدّ سطرًا ... من كتاب الله موزون
لن تَنَالُوا البرَّ حتَى ... تُنفِقُوا ممّا تُحِبُّون[1]

ولسنا نود أن نسير مع هذا اليهودى الكنود فى سفاهته وتطاوله على دين لولا سماحة تعاليمه ما وصل - هو وأهل جلدته - إلى ما وصلوا إليه من سماحة، وحرية، وإكرام، ولعلّ فى هذا القدر ما يشير إلى تلك المعركة الفكرية التى كانت بين الإسلام واليهودية فى عصر ابن حزم، وتولى كبرها «ابن نغريله» الذى ألف كتابا يطعن فيه على الإسلام وكتابه الكريم فرد عليه ابن حزم بكتاب سماه «الرد على ابن نغريلة اليهودى»[2] واستنكر المسلمون هذه الوقاحة واحتجوا على «حبوس» لاستوزاره، وعلى أهل غرناطة لانصياعهم لحكم هذا اليهودى فقال أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود فى هذا المعنى:

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... بُدُور الزمان وأسد العرين
لقد زلَّ سيدكُم زلةً ... أقرَّبها أعين الشامتين
تخيَّر كاتبه كافرًا ... ولو شاء كان من المسلمين
فعزَ اليهود به وانتخوا ... وكانوا من العشرة الأرذلين[3]

* * *

(١) ابن سعيد: المغرب ١١٤، لاحظ أن البيت الثانى نظم للآية الثانية والتسعين من سورة آل عمران.
(٢) حققه إحسان عباس (انظر مبحث تراث ابن حزم).
(٣) اليهود فى الأندلس ٤٤.

وقد نالت المرأة في مجتمع الأندلس نفوذا واسعا، وتمتعت بقسط وافر من الحرية، فكانت «صبح[1]» ذات سلطات واسع في أيام «الحكم» وفي جانب من عهد ابن أبي عامر».

وكان «لطروب»[2] جارية عبد الرحمن إدلال كثير عليه، وقد نقم الناس على القاضي محمد بن زياد خضوعه لامرأته «كفات»[3] لا لأن هذا الخضوع كان مستهجنا في حد ذاته، بل لأن القاضي يجب أن يكون فوق هذا المستوى[4].. وتولت المرأة المناصب أيضا: فكانت «لُبنى» كاتبة للخليفة الحكم بن عبد الرحمن، وهي نحوية، شاعرة، بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصره أنبل منها، وكانت عروضية، خطاطة جدا[5]، وكانت «مزنة» كاتبة الخليفة الناصر لدين الله، حاذقة في الخط[6].كما اشتهرت «عائشة بنت أحمد بن قادم» الذي يقول عنها ابن حيان: «لم يكن في حرائر الأندلس في زمانها من يَعْدِلُها فهما، وعلما، وأدبا، وشعرا، وفصاحة، وعفة، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها فتبلغ

(١) هي زوجة الحكم المستنصر بالله الأموي، خليفة الأندلس، وأم ولده هشام المؤيد بالله، لبثت زهاء عشرين عاما تسيطر بسحرها ونفوذها على خلافة قرطبة، وتقوم بتدبير شئونها في السلام والحرب.. وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال، فشغف بها «الحكم» وأغدق عليها حبه وعطفه، ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأي، توفيت حوالي ٣٩٠ هـ (انظر: محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية ١٩٩ – ٢١١ ط الثانية مكتبة الخانجي بالقاهرة).

(٢) طروب: من فواضل نساء عصرها أولع بها الأمير عبد الرحمن الأوسط ولعا عظيما، وكلف بها كلفا شديدا، فأغضبها ذات يوم فهجرته وصدت عنه، وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها، فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها، وحاول أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك، فأرسل من خصيانه من يكرهها على الوصول إليه فأغلقت باب مجلسها في وجوههم، وآلت أن لا تخرج إليهم طائعة ولو انتهى الأمر إلى القتل. فانصرفوا إلى عبد الرحمن وأعلموه بالأمر، واستأذنوه في كسر الباب عليها فنهاهم وأمر بسد الباب عليها من خارجه بالدراهم، ففعلوا، وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا في المراجعة على أن لها جميع ما سدّ به الباب فأجابت وفتحت الباب فانهالت الدراهم في بيتها، فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال، وأعطاها حليا قيمته مائة ألف دينار، وكانت ذات نفوذ وسلطان في الدولة تبرم الأمور فلا يرد لها شيء مما تبرمه. (عمر كحالة: أعلام النساء ٢/ ٣٦٦ الطبعة الثانية – المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٧٨ هـ – ١٩٥٩م).

(٣) انظر: الخشني: قضاة قرطبة ٦٠ (الدار القومية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦م).

(٤) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ٢٦.

(٥) توفيت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة. (الصلة ٣/ ٦٩٢).

(٦) توفيت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. (الصلة ٢/ ٦٩٢).

ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها، وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف، وتجمع الكتب، وتعتنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة حسنة[1]».

ولعل هذه المكانة التى بلغتها المرأة هى التى نبهت الأندلسيين إلى التساؤل حول علاقة المرأة بالنبوة وأوقعت الجدل بين الفقهاء القرطبيين فى هذه المسألة[2].

أما عن لغة هذا المجتمع الذى عاش فيه ابن حزم، فكانت اللغة العربية الفصحى هى اللغة القومية لأنها لغة القرآن، ولذا أصبحت لغة الحديث فى اجتماعات الأصدقاء المثقفين وفى مجالس الأدب، وفى مراحل التعليم المختلفة، وفى العلاقات الدولية، وخاصة مع المشرق. وكان التمكن منها شرطا لتولى المناصب العامة، والتفوق فيها الطريق الوحيد إلى النبل المكتسب والوظائف العليا[3]. ومن ثم نجد الشباب من غير المسلمين مولعين بالتراث العربى من أدب وشعر، ولم يعودوا يقرءون إلاّ كتب المسلمين وقد جأر المطران الفارو بشكواه من انتشار اللغة العربية بين شباب النصارى مما أفضى بهم إلى نسيان لغتهم، قال: «ولا تكاد تجد بين أتباع المسيح واحدا من ألف يحسن كتابة رسالة إلى أخ له، فى حين أنّ هناك عددا لا يحصى ممن يتشدقون بالألفاظ العربية، ويتذوقون جمال الشعر خيرا من المسلمين[4]».

وكانت البربرية، بلهجاتها المختلفة، فى الأعوام الأولى من الفتح، يتحدث بها مع الجنود البربر والمهاجرين من شمال أفريقية، ولكنها ما لبثت أن تقهقرت أمام العربية، حتى تلاشت تماما فى هذا العصر الذى نحن بصدده[5].

وكانت هناك اللغة اللاتينية، ويسميها المؤرخون العرب العجمية أو اللطينية، وقد ساق «الخشنى» فى كتابه تاريخ القضاة أخبارا عن قضاة أندلسيين كانوا يكلمون الخصوم الذين بين أيديهم بالعجمية[6].

---

(١) توفيت سنة أربعمائة (الصلة ٢/ ٣٩٦).

(٢) تاريخ الأدب الأندلسى ٢٦.

(٣) دراسات ٢٤ – ٢٥.

(٤) الإسلام فى أسبانيا ٢٨ – ٢٩.

(٥) دراسات ٢٦.

(٦) انظر: قضاة قرطبة ٨٠.

والظاهر أن هذه اللغة كانت من الشيوع بين أهل الأندلس بحيث تعجب ابن حزم من أن بنى بلى بن عمرو بن الحافى، وكانت دارهم بالموضع المعروف باسمهم بشمال قرطبة، لا يحسنون الكلام بها وإنما يتكلمون بالعربية فقط، قال فى «جمهرة أنساب العرب» بعد أن ذكر موضعهم «وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم، لا يحسنون الكلام باللطينية، لكن بالعربية فقط[1]».

وعرف العصر عددا من كبار المفكرين اليهود فى قرطبة، وفى غيرها، وفيه بدأت الدراسات اليهودية تزدهر، ومع ذلك لا يمكن القول بأن اللغة العبرية كانت لغة ثقافية أو محادثة لأحد، صحيح أن عددا محدودا من علماء اليهود كان على معرفة بها، ولكنها معرفة المتخصص الراغب فى الدراسة، أكثر منها معرفة المتمكن يجعل منها محملا لأفكاره أو مشاعره، أو أداة وصل بينه وبين الآخرين[2].

* * *

تلك هى ملامح مجتمع الأندلس الذى درج عليه صاحبنا أبو محمد بن حزم وقد رأينا كيف كان للجالية اليهودية والطائفة المسيحية مكانة مرموقة فى هذا المجتمع الذى تظلله راية الإسلام سماحة وعدلا.. ولا ريب أن وجود هذه الطوائف التى خالطت المسلمين بالأندلس أدى إلى صراع فكرى، وجدل دينى، وخاصة بعد أن ازداد الاحتكاك بين المسلمين وبين النصارى فى الشمال بسبب الحروب التى دارت رحاها حينا من الدهر، ولم تنقطع إلا بضياع الإسلام من هذه البلاد.. ولقد كان كتاب الفصل ثمرة لهذا الالتقاء بين المسلمين وغيرهم من الطوائف المختلفة الأمر الذى لولاه ما كان كتاب «الفَصْل» هذا، كما عرفه الباحثون عمقًا.. ودقةً.. واتساعًا..

رابعا: الحالة الدينية:

لم يمض وقت طويل على فتح الأندلس (سنة ٩٢ هـ) حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وأقبلوا على الدعوة الجديدة عقيدة.. وفكرا.. وسلوكا.. وقد حرصوا على أداء

(١) جمهرة أنساب العرب ٤٤٣، وانظر – أيضا – الإسلام فى أسبانيا ٢٥.
(٢) دراسات ٢٧.

شـعائره، واتباع تعاليمه فى حب وهدوء. ومن ثم كان الرحالة المشـارقة عندما تطأ أقدامهم بلاد الأندلس تنشرح صدورهم بما عليه الناس من ولاء وإخلاص خصوصا من أولئك الإيبيريون الذين أسـلموا مع الفتح أو بعـده.. وقد احترم الولاة فى تلك الديار حرية العقيدة، ولم يكن أحد يُكره على اعتناق الإسلام، ومن أراد ذلك فإرادته مطلقة ودون ضغـط أو تدخل من أحد، وكان يتم اعتناق الإسـلام أمام القاضى، ويسـجل فى وثائقه[1].

ولا ريب أن ديار الأندلس الإسـلامية عاشـت وفيةً لمذهب الإمـام مالك – عليه سحائب الرحمة – وضاقت بكل الذين اعتنقوا مذهبا غيره، أو حاولوا الدعاية لمذهب آخر سـواه، وقد كانـت الأندلس تضم ثلة من فقهاء هـذا المذهب بخلاف غيره من المذاهـب الفقهية الأخـرى، وكان على رأس فقهاء هذا المذهب سـليمان بن خلف الباجـى الذى كان بينه وبين ابن حزم مواقف ومناظرات يطول ذكرها، ولعل مكانة هذا المذهب وانتشاره فى تلك البلاد يرجع لعاملين أساسيين:

(أ) ذكر المقّرى فى «نفح الطيب» أن الأمير هِشَـام بن عبد الرحمن قد نقل إليه ما عليه الإمام مالك من سعة العلم، وجلالة القدر والتقوى، وأنه عندما سمع بسيرته من بعض الأندلسيين قال لهم نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم، فأحب مالكا ومذهبه وحمل الناس على اتباعه[2].

(ب) مـا أورده الحميدى عن أسـتاذه ابـن حزم من تمكن يحيـى بن يحيى عند السلطان – الحكم بن هشام – وجعله القضاء فى الأندلس قاصرا على المالكيين.. مما دفع الناس إلى التفقه على مذهب مالك – رضى الله عنه – طلبا للدنيا ورغبة فيما عند السلطان، والناس – كما يقول ابن حزم – سراع إلى الدنيا والرياسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به[3].

(١) راجع: الطاهر مكى: دراسات ٥٧.
(٢) المقرى: نفح الطيب ٢/ ١٢٦.
(٣) راجع: جذوة المقتبس ٣٨٣ – ٣٨٤.

ومن الصعب أن نحدد من هو أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس، فمن قائل: إنه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون لأنه أول من أدخل الموطأ إلى بلده[1]، ومن قائل: إن الغازى بن قيس دخل الأندلس بالموطأ فى أيام عبد الرحمن[2]، وقد كان موطأ الإمام مالك هذا، وشرح المدونة لسحنون القيروانى، من أوائل الكتب التى يدرسها المالكية وأكثرها رواجا..

وفى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى جاء قاسم بن محمد بن سيار بالمذهب الشافعى من المشرق، وانصرف إلى نشره عن طريق الدرس والتأليف، وكان يلقى دروسه فى المسجد الجامع، ووجد رعاية من بعض الأمراء حماية له من علماء المالكية، وعاش المذهب الشافعى فى الظلّ طوال أيام عبد الرحمن الناصر، لأن ابنه الأمير عبد الله – وكان شافعيا – اتّهم بالاشتراك فى مؤامرة لخلع أبيه الناصر، لأنه بايع ابنه الحكم بولاية العهد دونه، وقد فشلت المؤامرة، ولقى عبد الله حتفه على يد أبيه، وكان لذلك أثره فى انتشار المذهب الشافعى فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر، الذى كان يحسن وفادة القادمين إلى الأندلس من أهل الأدب المشارقة، وبيهم عدد من شيوخ المذهب الشافعى، فانتعش المذهب الشافعى من جديد، ولكنه انكمش ثانية فى عهد المنصور بن أبى عامر، وكان حاكما واقعيا، فرأى من صالحه أن يجارى فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم، وفيما بعد سوف يصبح ابن حزم واحدا من أتباعه، قبل أن يتحول إلى المذهب الظاهرى[3].

وقد دخل المذهب الظاهرى الأندلس على يد عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال المتوفى سنة ٢٧٢ هـ تقريبا، كما وجد غيره من العلماء الذين رحلوا للمشرق، ومهّدوا للفقه الظاهرى بعد عودتهم، بما نشروا من حديث رسول الله، وما نقلوا من أخبار المذهب وأخبار علمائه.. ومن أشهر هؤلاء بقىّ بن مخلد، وأبو عبد الله محمد بن وضاح، وقاسم بن أصبغ، ومن ثم ظهر علماء أمكنهم أن يعلنوا اختيارهم،

(١) نفح الطيب ١/ ٣٤٩.
(٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسى ٢٨.
(٣) الطاهر مكى: دراسات ٥٩.

ويجاهروا بظاهريتهم وكان على رأسهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى الذى كان خطيب الأندلس، وقاضى الجماعة فى قرطبة، وقد اطلع ابن حزم على أخباره، والتقى بابنه سعيد بن منذر الذى توفى فى شيخوخة كبيرة سنة ٤٠٣ هـ[١]. ومن علماء الظاهر الذين أخذ عنهم العلم أبو محمد بن حزم مسعود بن سليمان بن مفلت أبى الخيار المتوفى سنة ٤٢٦ هـ.

ثم تسلم المذهب الظاهرى فى الأندلس ورفع لواءه الإمام ابن حزم كما سنبين فى حديثنا عن «منهجه الظاهرى».

وقد وجد فى الأندلس قلة قليلة تقول بآراء المعتزلة، ومن أوائل القائلين به، أحمد بن موسى بن حدير الذى كان يقول: «إن الله عاقل»[٢] كما كان منذر بن سعيد يتهم بالميل إلى هذا المذهب، وكان «حكم» ابنه رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم[٣]. وقد واجه فقهاء الأندلس هذا المذهب باستنكار شديد، والذين جاءوا إلى بلادهم لنشر هذا المذهب أبعدوا عنه، مثلا وصل قرطبة أبو الطيب بن أبى بردة عام ٣٦١ هـ، وأحسن «الحكم الثانى» استقباله كواحد من كبار علماء الشافعية على أيامه، ولكن ما إن علم أنه من المعتزلة حتى أصدر قرارًا بإبعاده ولكن ابن حزم يقول لنا: «إن وادى بنى توبة كان كله معتزليا[٤]».

وكان ابن مسرة يخلط مذهبه بآراء المعتزلة ويقول بالقدر[٥]، ومؤسس هذا المذهب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة، قرطبى ولد سنة ٢٦٩ هـ وتتلمذ على يد أبيه ومحمد بن وضاح الخشنى، وفى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر – أى سنة ٣٠١ على التحديد – خرج إلى المشرق فارا بنفسه لأنه اتّهم بالزندقة[٦].

---

(١) أبو زهرة: ابن حزم ٢٧٣.

(٢) الفصل ٤/ ٢٠٣.

(٣) طوق الحمامة ٧٢.

(٤) دراسات عن ابن حزم ٦٠.

(٥) راجع الفصل ٤/ ١٩٨.

(٦) تاريخ الأدب الأندلسى ٣١، ويقول الدكتور الطاهر مكى: إنه فى زيارته للرباط – عاصمة المغرب – وجد أن مخطوطة الجزء الخامس من كتاب «المقتبس» لابن حيان – التى توجد فى خزانة القصر الملكى

ويقـول هذا المذهب على الجمع بين بعض مبادئ المتصوفة وبين أصول الاعتزال فلـم يكن معتزليا خالصا، ولا باطنيا خالصا، فأما المبادئ الاعتزالية التى كان يقول بها فهى قوله بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله. ويقول ابن حزم «إن ابن مسرة شـارك المعتزلة فى القول بالقدر، وكان يقـول: إن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتـان، وإن لله تعالـى عِلْمَينِ أحدهما أحدثه جملة وهو علـم الكتاب - أى علم الغيب - كعلمه أنه سيكون كفار ومؤمنون بالقيامة والجزاء ونحو ذلك، والثانى علم الجزئيات وهو علم الشـهادة وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك، فإنه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئا حتى يكون، وذكر قول الله تعالى ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾[1] (سـورة الرعـد: ٩). وأما المبـادئ الباطنية فإنـه بناها على آراء منسـوبة «لأنبذ وقليس»، وليست له، وإنما هى آراء «فيلون» الإسكندرى «وأفلوطين» ومن هذه الآراء المنسـوبة «لأنبدوقليـس» الجمع بين معانى صفات الله وأنها كلها تؤدى إلى شـىء واحد، وأنه إن وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة بل هو الواحد بالحقيقة الذى لا يتكثر بوجه وقد يستنتج مما جاء فى كتب ابن مسرة أن النبوة اكتساب لا اختصاص وأنه قد يحرزها من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس، وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول له[2]».

وقد أثارت آراء ابن مسـرة بعض الخصومات الجدلية فى المشـرق وفى الأندلس وتصدى للرد عليه بعض العلماء من المشـارقة وبلاد الأندلس على السواء، وكان من المشـارقة: أحمد بن محمد بن زياد الأعرابى، وأحمد بن محمد بن سالم التسترى، ومن أشـهر الأندلسـيين الذين قاموا بالرد على ابن مسرة الفقيه القرطبى، محمد بن يبقـى بـن زرب، وكان ذلك فى أواخر خلافة الناصر عـام ٣٥٠ هـ فمنحه الخليفة، مع الزبيدى، أبى محمد بن الحسـن، سلطات واسعة لمحاصرة آراء ابن مسرة، فأمر

ولما تنشر تضم نصوصا كثيرة، ذات فائدة قصوى فى توضيح مذهب ابن مسرة وتحديد مساره (دراسات عن ابن حزم ٦١).

(١) الفصل ٤/ ١٩٨.

(٢) الفصل ٤/ ١٩٩.

ابن زرب باعتقال كبار تلاميذه، وأكرههم على رفض أفكارهم على ملأ من الناس، وأمر بكتب ابن مسرة التى كانت معهم فأحرقت علانية على مرأى منهم، أمام أبواب المسجد الجامع، وقد خفت حدة الملاحقة فى عهد «الحكم الثانى» ولكن ما إن ولى المنصور بن أبى عامر الحجابة، وعين ابن زرب قاضيا، حتى اشتدت الملاحقة من جديد[1].

وكان من أصحاب مذهب ابن مسرة: إسماعيل بن عبد الله الرعينى، وهو متأخر الوقت عن الجيل الثانى من أصحابه، وقد أدركه ابن حزم ولم يلقه «وكان من المجتهدين فى العبادة، المنقطعين فى الزهد[2]» وقد أحدث فى المذهب أقوالا سبعة فبرئ منه سائر «المسرية» وكفروه، إلا من اتبعه منهم، ومما أحدثه قوله: إن الأجساد لا تبعث أبدا، وإنما تبعث الأرواح، وكان يقول إن الإنسان حين يموت، تلقى روحه الحساب ويصير إما إلى الجنة أو إلى النار، وأنه لا بعث إلا على هذا الوجه، وكان يقول: إن العالم لا يفنى أبدا، وكان لا ينسب الفعل إلى الله وينزهه عن ذلك، ويرى أن العرش هو الذى يدبر العالم، وكان ينسب هذا القول إلى محمد بن عبد الله بن مسرة، ويحتج بألفاظ من كتبه، قال ابن حزم: «ليس فيها لعمرى دليل على هذا القول ولما برئت منه المسرية بقيت تتبعه ابنته: وكانت متكلمة ناسكة مجتهدة»[3] ويقول ابن حزم إنه (أى ابن حزم) عرض هذا الأقوال على ابن إسماعيل الرعينى فأنكر كل ذلك.. قال: «ورأيت أنا من أصحاب إسماعيل الرعينى المذكور من يصفه بفهم منطق الطير وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون، وأما الذى لا شك فيه فإنه كان عند فرقته إماما واجبة طاعته يؤدون إليه زكاة أموالهم، وكان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث أو بين ما يكتسبه من الرفاق، وأن الذى يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيف ما أخذه... هذا أمر صحيح عندنا عنه يقينا، وأخبرنا عنه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط، وصح عندنا عنه أنه كان يقول بنكاح المتعة..[4].

(١) الدكتور مكى ٦١ وراجع أيضا: تاريخ الأدب الأندلسى ٣٥.
(٢) الفصل ٤/ ١٩٩.
(٣) الفصل ٤/ ١٩٩.
(٤) الفصل ٤/ ١٩٩ – ٢٠٠.